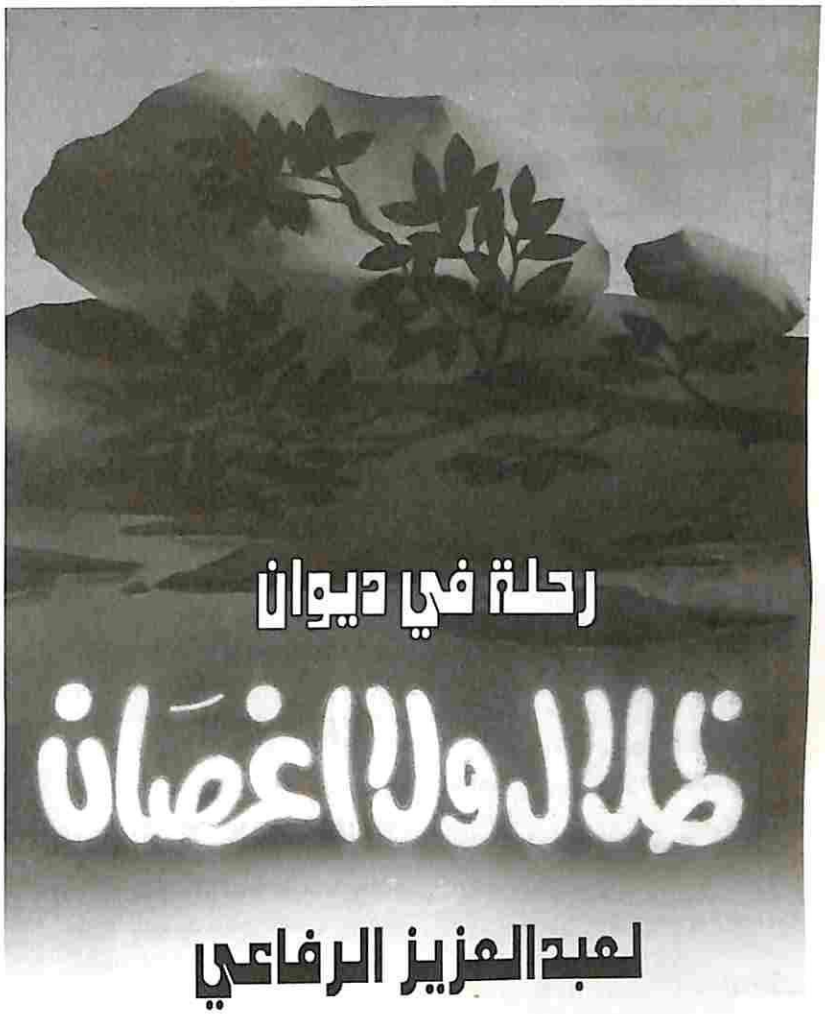

رحلة في ديوان
ظلال ولا أغصان
لعبدالعزيز الرفاعي

بقلم: أحمد سالم باعطب
السعودية

أصدر عبد العزيز الرفاعي قبل وفاته ديوان شعر سماه «ظلال ولا أغصان» وهو الديوان الوحيد الذي جمع بين دفتيه ما اختاره من جيد شعره من قصائد ورباعيات، أو لنقل ما رضي عنه وارتضى أن ينسب إليه، ويدخل دائرة أسرته الأدبية، بمعنى أن هذا الديوان لا يمثل كل شعره أو جله ولكنه مختارات، وأنا لا أصدر هذا القول من تلقاء نفسي، ولكن حجتي في الإدلاء به مصدرها قوله الذي تضمنته المقدمة التي كتبها عبد العزيز - رحمه الله – لديوانه حيث جاء في الصفحة الرابعة من الديوان قوله: «وما جمعت من هذه الكلمات، فقدمته لقرائي اليوم بعد تردد لم يطل أكثر من ثلاثين عاماً .. إنما هو شطر من ذلك العمر التهويمي الذي عشته، أما الشطر الآخر فقد زويته وطويته مؤثرا أن يظل حيث هو من مخبئه».

عنوان الديوان:

لم يقم أحد بالكتابة عن عنوان ديوان عبد العزيز الرفاعي «ظلال ولا أغصان» وغاص في الأعماق باحثا عن المعاني المتوارية عن السطحية، إذا استثنيت الدكتور محمد مريسي الحارثي الذي أعطاه من البحث والتدقيق ما يستحقه، فقد أحصى معاني الظلال، وبين أن ظل الجنة هو الظل الدائم المستمر، وتطرق في بحثه إلى معنى « الظلال» في قوله ﷺ: «الجنة تحت ظلال السيوف».

ثم يواصل تحليله ويتحدث عن الظلال فيما وراء المحسوس، ويعرج في حديثه على معنى الظل في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ (القصص).

يقول الدكتور الحارثي في تحليله لظلال الرفاعي: «أنها لا تنتمي إلى محسوس».

وفي رأيي أن العمل الإبداعي في ذاته عمل محسوس، واللذة التي يشعر بها المبدع بعد الانتهاء من عمله ما هي إلا ظلال للعمل الإبداعي المحسوس، ولا يتصور أن تأتي ظلال من غير كائن محسوس، ومن قال بإمكانية ذلك فإنما يؤمن بوقوع المستحيل والمستحيل هو ما لا يمكن حدوثه. ولا يصح رأي الدكتور الحارثي إلا في حالة اعتبار الرفاعي الأغصان أنها الأشياء المعنوية التي شملها فهرس ديوانه وهي: ظلال الدعاء، ظلال الوجدان، ظلال الطبيعة، ظلال المناسبات، ظلال الصداقة.

وقد جاء في بداية الفقرة الأخيرة من الصفحة العاشرة من ديوانه «ظلال ولا أغصان» قوله: «فقد كانت هناك في الغابة أغصان» والغابة لا تسمى غابة إلا إذا كانت تحتوي على أشجار كثيفة، والأغصان لا تأتي إلا إذا وجدت الشجرة فلا يعقل أن تنمو أغصان في غابة دون أن تكون لها أشجار ذوات سوق وجذور.

مربط الفرس فهرسة الديوان:

قسم عبد العزيز الرفاعي - رحمه الله - ديوانه الذي أصدره قبل وفاته بسنة، والموسوم بـ «ظلال ولا أغصان» إلى ستة أقسام؛ قسم للمقدمة التي افتتح بها مجموعته الشعرية، وخمسة أقسام للقصائد المختارة من أشعاره التي نظمها خلال سني حياته وهي:

١ - ظلال الدعاء.

٢ - ظلال الوجدان.

٣ - ظلال الطبيعة.

٤ - ظلال المناسبات.

٥ - ظلال الصداقة.

ولعل عبد العزيز الرفاعي استمد ظلال ديوانه من هذه الظلال التي لا أغصان لها فعلا. ومثل هذا التعليل يذكرني بلغز يكثر إلقاؤه على المتسابقين وهو: ما هو البحر الذي لا ماء فيه؟ والجواب هو المكتوب في الخرائط الجغرافية!!

ومجموع قصائد هذه الظلال هي كالتالي:

ظلال الدعاء: قصيدتان.

ظلال الوجدان: ست قصائد ومقطوعتان.

ظلال الطبيعة: ثلاث قصائد.

ظلال المناسبات: ست قصائد.

ظلال الصداقة: ثماني قصائد وثلاث مقطوعات.

المجموع: خمس وعشرون قصيدة وخمس مقطوعات.

منها قصيدتان ومقطوعتان من إبداع سواه فيكون مجموع القصائد التي من إبداعه هي ثلاث وعشرون قصيدة ومقطوعتان، في حين ذكر الدكتور المريسي أنها إحدى وعشرون قصيدة وأربع مقطوعات وقد احتسبت المقطوعة على ما سار عليه الأولون وهي ما كانت دون عشرة أبيات.

المرور بظلال الرفاعي

لو أردنا أن نتفيأ ظلال الرفاعي الوارفة، ونحاول خلال وقوفنا بها، أن نقطف زهرة، أو نظفر بثمرة نغذي بها عقولنا، أو نسمح لعيوننا أن تتمتع بالجمال والحسن والبهاء في كل منها، لطال بنا المقام، بل ربما دفعنا ذلك إلى أن نجعل من مرورنا السريع إقامة دائمة بإحدى تلك الظلال، لكنني لم أصطحب في هذه الرحلة أحدا من

أولي الخبرة والمعرفة، الذين يحتاج إليهم في مثل هذه الرحلات للاهتداء بهم في الليالي المقمرة.

ومادام الأمر كذلك فقد قررت أن تظل حقائبي محزومة طوال الرحلة، وأن تكون وقفاتنا قصيرة قدر المستطاع.

❖ ظلال الدعاء:

المحطة الأولى من تلك الظلال التي مررنا بها هي «ظلال الدعاء» وهي ظلال دوحتين: إحداهما موسومة بـ «دعاء» والأخرى تحمل عنوان «ضراعة». أما «دعاء» فقصيدة ذات خمسة عشر بيتا، منها أحد عشر بيتا يمكن أن تدرج في مضمار المعاناة الإنسانية، أما الأربعة الباقية فهي التي تحمل ظلال الدعاء. والمرء المسلم يجد راحة نفسية عندما يرفع يديه إلى السماء داعيا ربه في كل حين، وهو أحوج ما يكون إلى ذلك عندما يصادف في يومه أو ليلته ما يقلق راحته، وينغص عليه حياته، ولقد أحسن الرفاعي صنعا عندما بدأ بالمعاناة، وختمها بالدعاء، والله يقبل دعاء عبده المؤمن الصادق، ولا يقبل دعاء الكافرين.

قال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ ﴿١٤﴾ (الرعد) .

وفي معاناة الرفاعي في هذه القصيدة نلمس مظاهر الحرمان في صور تركيبية قاتمة، ومن أمثلة تلك المظاهر قوله: «ضجة الحرمان تلذغ نارها جنبي». وقوله: «وشمس شبابي المحروم قد مالت إلى الغرب» وقوله: «تذرو ناضر الحب».

وتبلغ قسوة الحرمان أشدها في هذين البيتين:

تمر مواكب النعمى
وأشهد فرحة الركب
وما حظي سوى ما شاهد
ت عيناي عن كثب

ثم أتبع المعاناة بالدعاء الخالص إلى الله معلنا خوفه من لقاء ربه خشية أن تغلب سيئاته حسناته، وتحجبه عن الظفر والفوز بجنات النعيم، ويطلب من ربه أن يهيئ له أسباب النعمى، وأن يمسح عنه لهفة الحرمان وأنه يكفيه من ربه أن تمس يدا رحمته مواطن الجدب منه.

القصيدة الثانية في «ظلال الدعاء» بعنوان «ضراعة» وقد كتبت على شكل «شعر التفعيلة» أو بالأصح، على شكل «الشعر المنثور لأن الرفاعي لم يلتزم بالتفعيلة في كل أبياتها، وفي الواقع إنها لو كتبت على طريقة الأقدمين أو الطريقة التقليدية ملتزمة بأوزان الخليل بن أحمد الفراهيدي لكانت في جملتها أحد عشر بيتا، ومنها:

أحدو الصباح وأرفو من أشعته
عمري وأعرف أنه يمسي
الليل مركبة عندي يواكبها
حلم الصباح وطلعة الشمس

والليل مزرعة للورد موسمها

في مهرجان الهوى أو زفة الغرس

وفي القصيدة صور جميلة نذكر منها قوله:

«أحدو الصباح وأرفو من أشعته عمري» ومنها «الليل مركبة عندي يواكبها حلم الصباح وطلعة الشمس» ومنها أيضا:

إذا سرت دعواتي في معارجها

وجدت عندك ينبوعا من القدس

❖ ظلال الوجدان:

ضمت ظلال الوجدان ست قصائد من إبداع الرفاعي ومقطوعة تنتمي إلى الأستاذ أنس عبد الرحمن، والقصيدة الأولى في ظلال الوجدان بعنوان «بقية» كتبت عام ١٤٠٩هـ، وعدد أبياتها اثنا عشر بيتا.

وقد يلحظ القارئ خلال قراءته للقصيدة أن هناك أخطاء مطبعية، كانت سببا في إحداث تغيير وزن بعض الأبيات، فالبيت الرابع من القصيدة ورد على النحو التالي:

يا عمر ما صنعت بك الأيام والأيام واسعة الفضاء

وصحة البيت بعد حذف الكلمة الزائدة «والأيام» هي:

يا عمر ما صنعت بك الأيام واسعة الرجاء

وفي هذه القصيدة القليلة الأبيات يبدو القلق مسيطرا على الشاعر فلا يجد أمامه مؤنسا ولا مرشدا ولا نجما يستهدي بضيائه، فقد أظلمت الدنيا في عينيه بعد أن غارت أحلامه وأمانيه وغار معها في أعماق الظلام. ولكنه رغم كل ذلك يقف صامدا متحديا كل أسباب الإحباط معتمدا على ربه يمده بالقوة التي ترتعد من شدتها العواصف، واثقا بأن هناك صلة بينه وبين ربه يجد في استمرارها نور بقائه. ومادام إيمانه بالله قويا فلن يذل ولن يستكين.

أغنية تتمنع:

هذا عنوان قصيدة أخرى من ظلال الوجدان تمثل بوضوح الفترة التي عاشها عبد العزيز الرفاعي مع أحلام اليقظة، لقد كتب هذه القصيدة ونشرها بالعدد (٦٩٣) من جريدة البلاد السعودية الصادرة في ٦ ربيع الآخر عام١٣٦٧هـ تحت عنوان «أغنية متجنية» أي وهو في عنفوان شبابه، يعبر السنة الرابعة والعشرين من عمره، وهي مرحلة تضطرم فيها المشاعر، ويتحرك فيها الوجدان. ومطلع القصيدة:

أحباي في نفسي من الشعر غنوة

يجيش بها قلبي وتأبى على فمي

في هذا البيت يعلن الشاعر الرفاعي - رحمه الله - عن رغبات وأمنيات تتفاعل في داخله، لكنه لايستطيع أن يبوح بها، ولا يمكن أن نصدق أن هذه الرغبات هي التي تأبت أن تأخذ طريقها إلى فمه، وتكشف أسرارها، لكن الواقع هو صرامة في الطبع،وتقيد بالعرف الذي نشأ عليه الرفاعي حال بينه وبين السماح لهذه الرغبات أن تكسر القيود، وتنطلق، لأنه يرى أن في انطلاقها هلاكها وهلاكه، ولذلك يحاول جاهدا أن يشد وثاقها، ويمنعها من الجموح،

ويستمر في أحلامه حتى يصل بنا إلى قوله:

رؤى حالم مرت بأعطاف كاعب

وسحر على ثغر وفتنة معصم

وهناك لم يستطع صبرا على كتمان هذه الأحلام التي تشغله وقت يقظته وتحمله على بساطها تطوف به حول الرياض الغناء، والميادين الفسيحة، ومسارح الجمال، ومنتديات الحب في دقائق محدودة يتلذذ بما يرى، ويسر بما يسمع، وإن كان في الواقع لا يرى ولا يسمع شيئا، وإنما يكون في تلك الدقائق قد أسلم نفسه وتفكيره إلى الخيال الذي يسلبه إرادته وتركيزه، ويقلب له الأمور، ويصور له الأشياء كما يحب ويرضى كأنها واقعة فعلا.

❖ ظلال الطبيعة:

احتوى هذا القسم من الديوان على ثلاث قصائد، إحداها قصيدة «صبارة» التي نشرها الرفاعي في جريدة البلاد السعودية بتاريخ١٣٦٩/١/٧هـ، تشبه إلى حد كبير قصيدة عمر أبي ريشة الموسومة بـ «معبد كاجوراو» من

عمر أبو ريشة والرفاعي

حيث البحر الشعري الذي اختاره كل منهما، ومن حيث الموضوع فإن كلا الشاعرين يتحدث إلى من لا يعقل، وإن كلا الشاعرين استخدم نفس البحر وهو مجزوء الكامل، غير أن الرفاعي استخدم مجزوء الكامل المرفل في حين استخدم أبو ريشة مجزوء الكامل المذيل

يقول عمر أبو ريشة في مطلع قصيدته:

من منكما وهب الأمان لأخيه أنت أم الزمان؟

ويقول الرفاعي في مطلع قصيدته:

لا تأبهي بالحادثات ولا تذلي للزمان

وإذا فحصنا مطلع كل من الشاعرين وجدناه يبدأ بجملة طلبية أو جملة إنشائية، فمطلع أبي ريشة يبدأ بجملة استفهامية يقول: من منكما؟ أما مطلع الرفاعي فهو كذلك يبدأ بجملة نهي يقول: لا تأبهي.

ونجد أن مطلع أبي ريشة يشتمل على ثلاثة عناصر هي الزمان والأمان والمخاطب، وهو معبد كاجوراو، وكذلك مطلع الرفاعي يتكون من ثلاثة عناصر الزمان والحادثات والمخاطب وهو عند الرفاعي «الصبارة».

وهناك تشابه آخر وهو أن كلا الشاعرين استعان بالطبيعة في قصيدته، غير أن أبا ريشة استخدم مفرداتها بصورة مشرقة، بينما استخدم الرفاعي مفردات الطبيعة بصور قاتمة ولنضرب مثلين، يقول أبو ريشة:

وتكلمت أحجارك الصماء مشرقة البيان
وبقيت وحدك - فوق هذا الصخر - وقفة عنفوان

ثم لنقرأ ما قاله الرفاعي عن الصخر في قصيدته:

وتجهم الصخر الأصم وهل درى معنى الحنان

وعن الربيع يقول أبو ريشة في قصيدته «معبد كاجوراو»:

رد الربيع لها فرفت طلعة وزهت ليان
أهوت عليه فاكتسى بالياسمين الخيزران
وتمهلت لا وهجها فان ولا الينبوع فان

أما الرفاعي فيقول عن الربيع:

وجفتك أنفاس الربيع وكان مخضوب البنان
والشوك مشدود الوثاق على الثرى الظمآن عان
واخشوشنت منك الجذو ر على عروق من صوان

وهكذا نجد أن الرفاعي في كثير من بداياته الشعرية يميل إلى أن يكسو مفرداته بغلائل سود، وما ذاك إلا لأنه يصور فترة كان يمر فيها بظروف معيشية قاسية، فجاء هذا الشعر يصور حالته النفسية، ويعرب عن نظرته للحياة في تلك الفترة .

وفي قصيدتي أبي ريشة والرفاعي - رحمهما الله - نقطة أخرى يلتقيان عندها، يقول أبو ريشة في ختام قصيدته:

كاجوراو لولا العجز والحرمان ما كان الجبان

ويقول الرفاعي في ختام قصيدته:

الصبر من شيم الكرام إذا تناءى عن الجبان

فالجبان في بيت أبي ريشة إنسان وليد العجز والحرمان، فلو نال من القوة والإمكانات ما تمكنه من تحقيق مطالبه لما كان جبانا.

والجبان في منظور الرفاعي شخص يلوث سمة الصبر، فيأباه الكرام، لأن صبر الجبناء هو الذل والمسكنة والخضوع. والذي يسترعي الانتباه هو أن كل واحد منهما كان يجري حوارا من طرف واحد، فالمحاور لا يجيب، ولا يعلق، ولا يستفسر، فالشاعر أبو ريشة لم يتلق رداً من كاجوراو على أسئلته التي قدمها إليه ، كذلك الشاعر عبدالعزيز الرفاعي لم يحظ بكلمة أو تعليل أو تفسير لما قاله «لصبارته»، ولو أن كلا الشاعرين تخيل إجابات لمحاوره لكان في ذلك متعة ما بعدها متعة، ولكشف لنا الكثير من متناقضات الحياة طبقا لما لمسه في رحلة عمر كل منهما، وربما يكون هناك شيء من هذا القبيل ستكشف عنه الأيام المقبلة.

وخلاصة القول: أن إعجاب عبد العزيز الرفاعي في ريعان شبابه جعله يحاول أن يقلد عمر أبي ريشة، وأن يقتبس منه، وليس في ذلك عيب، فمعظم الشعراء في بداية حياتهم الأدبية ينهجون هذا النهج، وما الرفاعي إلا واحد منهم.

❖ ظلال المناسبات:

ضم هذا القسم من الديوان ست قصائد، أربع منها قصائد عمودية، وقصيدتان ينهجان درب التفعيلة، أما القصائد العمودية فهي:

- «تحية ندوة العلماء» : وهي من بحر الخفيف التام، وقد ألقاها في افتتاح ندوة الأدب الإسلامي في جامعة دار العلوم بالهند بتاريخ ١٣جمادى الآخرة ١٤٠١هـ ومطلعها:

أهنا موطني؟ أهذي بلادي؟
أنا لا أشتكي اغتراب الضاد

- «كلمة إلى الجزائر»: وهي أيضا من بحر الخفيف التام، وقد ألقيت في مؤتمر الأدباء العرب بالجزائر عام١٣٩٥هـ ومطلعها:

قبل أن تصدق المنى بالبشائر
حملتني إليك حلو الخواطر

- «تحية تونس» : وهي كذلك من بحر الخفيف التام، وقد ألقيت في مؤتمر الأدباء العرب الذي انعقد في تونس عام١٣٩٥هـ ومطلعها:

شعرتان اثنتان في اللمة السـ
ـوداء قد جرتا عليّ الوبالا

- «تحية عُمان» : وهي من مجزوء الكامل المرفل، وقد أعدها الشاعر ليلقيها في حفل تكريم المكرمين بوسام مجلس التعاون الخليجي، وكان أحد أولئك المكرمين، ولكن لم يتسع الوقت لإلقائها ومطلعها:

تحدث خاطري وأبى البيان
فهل أنت المعينة يا عُمان

وأما القصيدتان اللتان كتبهما الرفاعي معجبا بشعر التفعيلة فهما:

- «يا عيد» وهي قصيدة نظمت بمناسبة مرور عيد الفطر سنة ١٣٧٧هـ، وكانت الجزائر آنذاك لا تزال تناضل لنيل استقلالها.

وقد أرسلها الشاعر إلى إحدى المجلات لنشرها، فاعتذر رئيس تحرير تلك المجلة عن نشرها دون أن يشير إلى أسباب رفضها، وأعادها إلى الشاعر مرفقة برسالة لطيفة.

وظلت قابعة في سجنها حتى أصدر أمره بإطلاق سراحها قبل وفاته بعام، لتشارك أخواتها في وداعه، واحتلت مكانها في ديوانه «ظلال ولا أغصان».

يقول في مطلع القصيدة:

يا عيد في قلبي
وفي أغوار نفسي
في الحشاشة من ضميري
لوعة حرى
تمزقني
وتغتال البقية من سروري
ياعيد معذرة إليك
إذا نبوت
وان تبلد كل حسي
رغم موكبك الكبير
إن المسرة لا تلامس
أي قيد من شعوري
إني أرى
صور المباهج كالرؤى
غامت على عيني
شائهة المسير

والقصيدة وطنية تفيض حماسة وحرقة لما تعانيه بعض الشعوب الإسلامية والعربية، والشاعر في هذا النمط من الشعر لا يسلك مسلك غيره من حيث الغموض والرمز، فشعره لا يغرق في الرمزية، وينحدر في الغموض حتى الهذيان، ولا يتقمص أثواب الأحاجي والألغاز.

والقصيدة لا تخلو من لمحات فنية، وصور جميلة، تحمل في أجوائها ما أراد أن يعبر عنه الشاعر.

أما القصيدة الثانية والتي كتبها الشاعر على نهج شعر التفعيلة أيضا في «ظلال المناسبات» فهي القصيدة الموسومة بـ «يوميات مئذنة مكية» وهي قصيدة نظمت عقب أحداث الحرم المكي الشريف سنة١٤٠٠هـ، وقد صدرت في كتيب صغير، ثم رأى الرفاعي أن يضيفها إلى الديوان، وقد أحسن صنعا. ومجمل القصيدة سرد لحدث تاريخي له تأثير كبير في المحيط الداخلي والخارجي، وقد وفق الله أولي الأمر في القضاء عليه في مهده، ولم يمكنوه من الاستفحال ونشر بذور الشر في مجتمع لا يعرف إلا الأمن والطمأنينة والاستقرار.

❖ ظلال الصداقة:

ظلال الصداقة هو عنوان القسم الخامس من أقسام الديوان، ويحتوي على سبع قصائد وأربع مقطوعات أما القصائد فهي:

- «ليلة من العمر»: وقد ألقاها الشاعر في حفل تكريمه في إثنينية عبد المقصود خوجه عام١٤٠٣هـ، ونشرت بالمجلة العربية بالعدد(٧٠) شهر ذي القعدة ١٤٠٣هـ، كما أن وقائع حفل التكريم مثبتة بالجزء الأول من الإثنينية صفحة«١١٤» يقول في مطلعها:

أنجم من سمائها تتنادى
مشرقات تسدي إلينا السدادا
كالمجرات يأتلقن جميعا
كالمجرات يأتلقن فرادى

- «تحية وتهنئة»: وهي من نظم الأستاذ سراج عمر مفتي يهنئ بها عبد العزيز الرفاعي بمناسبة تكريمه من قبل الأستاذ عبد المقصود خوجه، والأستاذ سراج مفتي هو أحد زملاء الرفاعي. ومطلع القصيدة:

عبد العزيز تهانئا من مخلص
تهدى لشخصك عن أخيك تعبر

- «إن الهوى بهواء مكة يأسر» وهي قصيدة جوابية رد بها الرفاعي - رحمه الله - على قصيدة الأستاذ سراج مفتي

وهي على نفس الروي ومن نفس البحر وقد نشرت القصيدة بجريدة الندوة بالعدد (٦٧٢٥) الصادر بتاريخ ١٤٠٤/٧/٦ هـ، ومطلعها:

غفت العيون فما لعينك تسهر
والليل نام فما لليلك سمر

- «يا شاعر الأغصان غصنك مورق»: هذه القصيدة شارك بها الأستاذ محمد عبد القادر فقيه بعد نشر القصيدتين السابقتين في جريدة الندوة كما سبق ذكره، والقصيدة على نفس الروي ونفس البحر، تتكون من أربعة وعشرين بيتا، وعنوان القصيدة في صدر البيت التاسع عشر من القصيدة وهو:

يا شاعر الأغصان غصنك مورق
وجداك نهر بالأطايب مثمر

وشاعر الأغصان هو التوقيع الذي كان يختم به عبد العزيز الرفاعي قصائده التي يتم نشرها في الصحف والمجلات.

- «يا شاعر الأزهار»: هذا هو عنوان القصيدة الرابعة يرد بها الرفاعي على قصيدة صديقه «فقيه» وهي بعنوان «يا شاعر الأزهار». ومطلعها:

يا شاعر الأزهار كنت أظنها
أبيات ذي وله تعن فتعبر
ما كنت أحسب أن مسراها شذا
يسري على درب العبير معطر

ويجدر بي أن أتعرض بشكل سريع للبعد الزماني والمكاني والتاريخي في القصيدة التي بين يدي، فالبعد المكاني في القصيدة يمثله قول الرفاعي:

يا حبة العين التي يهفو لها
قلبي وعيني والحنين الأخضر
أم المدائن أنت سماك الذي
من بيته ظهر النبي الأطهر
لا ضير إن صنعوا لمجدك تاليا
يا حبذا إن جددوا أو طوروا

وأما البعد الزماني فيظهر في قوله:

تمضي السنون إلى الأمام وكلما
تمضي السنون فإننا نتأخر
أما العهود فلا تزال طرية
فيها الشباب يبش بل يتأطر

وأما البعد التاريخي فورد في قوله:

من عمق أعماق السنين يرده
في لوحة للحالمين تصور
أنا لن أحدثهم فتلك روائع
قلمي على تصويرها لا يقدر
ما يصنع الفنان؟ أيام الصبا
حلم فريد الصنع لا يتكرر

وفي القصيدة أبيات استوقفتني منها قوله:

ما يصنع الفنان؟ أيام الصبا
حلم فريد الصنع لا يتكرر

فجملة «أيام الصبا حلم فريد الصنع لا يتكرر» تشبيه جميل، وهو في علم البديع تشبيه بليغ.

تكملة قصائد «ظلال الصداقة»:

القصيدتان الأخيرتان في «ظلال الصداقة»

هما قصيدة «قطرة» وهي مهداة للشاعر الكبير الأستاذ محمد حسن فقي، وقد ألقاها في حفلة تكريم أقامها معالي الأستاذ أحمد زكي يماني في منزله العامر بالرياض، أما قصيدة الرفاعي ذات العنوان «قطرة» فعدد أبياتها اثنان وعشرون بيتا مطلعها:

نهلت فكان البحر مصدرك الطامي
فهل لي منك اليوم مصدر إلهام؟
ولست أجاري البحر ما دمت نده
وتمتاز - رغم العمق - بالمنبر السامي
ولكنني قد جئت أطلب قطرة
من الشاعر المغداق من بحره الطامي

أما القصيدة الثانية وهي آخر العنقود في الديوان فعنوانها «تحية» وقد وضع لها الرفاعي - رحمه الله رحمة الأبرار - مقدمة جاء فيها:

«هذه الأبيات العجلى، تحية لشاعر الخميسية الأستاذ أحمد سالم باعطب الذي غادر الرياض إلى جدة بعد عشر سنوات من العطاء المتصل، أمتعنا فيها بالكثير من شعره الفائق، وترك أرجه عطرا لا ينفد شذاه».

وأبيات القصيدة عشرون بيتا، وهي من بحر الخفيف، وقد امتدحني فيها - غفر الله له ذنوبه - بما لا أستحق، وهو الأجدر بكل ما نسبه إلي، وما أنا إلا تلميذ من تلامذته الكثر.

ومطلع القصيدة:

الينابيع - شعره - ما تغيض
يتزاحمن تالد وغريض
والمعاني روافد تتبارى
في يديه فيستجيب القريض

وقد ختم القصيدة بهذا البيت:

وكما تغرس القريض غناء
تغرس الود نبعه لا يغيض

د. عبدالله عسيلان

الرفاعي والشعر والنقاد:

لم يحظ شعر عبد العزيز الرفاعي بدراسة نقدية وافية من قبل الاختصاصيين أو النقاد الأكاديميين السعوديين أو غير السعوديين باستثناء ما قام به **الدكتور محمد مريسي الحارثي** في كتابه «عبد العزيز الرفاعي أديبا» والكتاب دراسة عامة لأدب الرفاعي شعره ونثره، وقد تناول في دراسته لشعر الرفاعي عدة جوانب مهمة يأتي في مقدمتها «عنوان الديوان». وما يوحي به. والخلاصة أن الدكتور محمد مريسي الحارثي قد قال كلمته الصادقة في شعر عبد العزيز الرفاعي وأشاد به، وبفضله وبنهجه وأدبه، وأنه رغم شكواه ورغم نظرته المتشائمة فإنه يحاول في كل مرة أن يجلو ذلك التشاؤم بالرجوع إلى الله طلبا للرحمة والمغفرة واتباع الصراط المستقيم.

كما تناول **الدكتور صلاح عدس** شعر الأستاذ الرفاعي بالدراسة والنقد من خلال بحث يحمل عنوان: «تأملات نقدية في شعر معالي الأستاذ عبد العزيز الرفاعي»

يقول الدكتور في بحثه:

«وأخيرا يمكننا أن نقول: إن شعر الأستاذ عبد العزيز الرفاعي ينبع من مرتفعات الشعر العربي في العصر الأموي والعباسي مكونا رافدا جديدا يصب في نهر الشعر العربي العظيم».

أما **الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل** فقد قال عن شاعرية الرفاعي «فليكن من شعراء الواحدة» جاءت هذه الجملة عنوانا لمقال نشر له في جريدة الجزيرة الصادرة بتاريخ ١٤١٤/٥/٨هـ وورد في المقال ما يلي:

«ولو لم يكن أبو عمار شاعرا لكان بقصيدته البائية من شعراء الواحدة».

وكتب **الدكتور عبد الله عسيلان** مقالا في الأربعاء الأسبوعي تحت عنوان «الرفاعي عاشق الحرف والتراث» قال فيه:

ومن مواهبه - أي عبد العزيز الرفاعي - العديدة التي يتمتع بها موهبة الشعر التي لا يعرفها عنه إلا القليل. وله شعر جزل رصين، فيه أصداء حالمة، وهمسات رقيقة، ولا يخلو من ومضات عميقة، ولمحات إبداعية، وتجارب شعورية تعبر عن وجدان صادق، وأحاسيس فياضة بالقيم والمثل العليا، وهو جانب بارز في شخصيته - يرحمه الله- وتجلى ذلك في ديوانه «ظلال ولا أغصان»* ■

---

* ينظر هذا الموضوع بتفصيل أكثر في كتاب عبدالعزيز الرفاعي .. صور ومواقف ، الجزء الثاني، تأليف أحمد سالم باعطب ، نشر عبدالمقصود محمد سعيد خوجه، جدة، سلسلة كتاب الإثنينية رقم ٨ ، ط ١ ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م ، وذلك من ص٢٦٦ إلى ٣٦٢.